التناسب بين الصفات الإلهية والسياق القرآني عند ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) نماذج مختارة دراسة تحليلية مقارنة

أ.م.د. حسام محمد جمعة

كلية الإمام الأعظم الجامعة / قسم اصول الدين سامراء

The proportionality between the divine attributes and the Qur’anic context according to Ibn Ashour In his interpretation (liberation and enlightenment) Selected models An analytical study

A.M.D. Hossam Mohamed Gomaa

Imam Azam University College / Department of Fundamentals of Religion Samarra

alsamrae28@gmail.com

الملخص

حاز تفسير (التحرير والتنوير) «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» مكانةً مهمة بين كتب التفاسير، حتى أضحى أسرع كتب التفسير تلقفاً لخواطر الباحثين، وذلك لما اشتمل عليه من التحرير والتحقيق والتهذيب، بالإضافة إلى عنايته بالجانب البلاغي في القرآن الكريم، ومن جملة ذلك عنايتُهُ بحُسنِ اختيار الألفاظ، وبيان التناسب النظمي بين كلمات القرآن الكريم، وهذا البحث يبيّنُ جانباً مأن جوانب حُسنِ اختيار الألفاظ في القرآن الكريم؛ وهو حُسنُ مناسبة صفات الله تعالى الواردةِ في ختام الآيات لمضمون الآيات، أو لما قبلها أو بعدها، فيجمعُ الأمثلةَ التي بيَّنَ فيها ابنُ عاشور مناسبةَ هذه الصفات، ويوضِّحُ هذه المناسبةَ ويزيدُها بياناً ولا سيَّما المواضع التي أجملَ فيها ابنُ عاشور وجهَ التناسب، ويقارنُ كلامَ ابن عاشور بكلام جملةٍ من المفسِّرينَ الذي اعتنَوا بهذا الجانب أيضاً؛ لبيانِ وجوهِ الاتِّفاقِ والاختلاف بين كلامه وكلامهم، ويُعينُ القارئَ على التدبُّرِ للقرآن الكريم بقدر الطاقة، ويُسهِمُ في الكشف عن الذَّوقِ البلاغيِّ عند ابن عاشور . **الكلمات المفتاحية:** التناسب، ابن عاشور ، الصفات.

Summary

Tafsir (liberation and enlightenment) “liberating the correct meaning and enlightening the new mind from the interpretation of the Glorious Book” has gained an important place among the books of interpretation, until it became the fastest book of interpretation to capture the thoughts of researchers, due to what it included of editing, investigation and refinement, in addition to its attention to the rhetorical aspect of the Holy Qur’an. Among that is his concern for the good choice of words, and the statement of the systemic proportionality between the words of the Noble Qur’an, and this research shows an aspect of the good choice of words in the Noble Qur’an; And it is a good fit for the attributes of God Almighty contained in the conclusion of the verses to the content of the verses, or to what is before or after them, so it collects the examples in which Ibn Ashour demonstrated the appropriateness of these attributes, and clarifies this occasion and increases it with a statement, especially the places in which Ibn Ashour beautifulized the aspect of proportionality, and compares the words of Ibn Ashour In the words of a group of commentators who also took care of this aspect; To clarify the aspects of agreement and disagreement between his words and theirs, and it helps the reader to reflect on the Holy Qur’an as much as possible, and contributes to revealing the rhetorical taste of Ibn Ashour.**Keywords**: proportionality, Ibn Ashour, attributes.

أولاً: مقدمة

الحمد لله المستحَقِّ للحمد، المتصف بالكمال والعظمة وكل المجد، القائم على نفوس العالم بآجالها، والعالم بتقلباتها وأحوالها، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، الرحمة المُهْدَاة، والنِّعْمَة المُسْدَاة، وعلى آله وأصحابه ومَن والاه، أما بعد.أمَّا بعد: فإن الإعجاز النظمي لهو أظهر وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وهو متعلّق بفنٍّ خاص من فنون اللغة، لا يتقنه سوى أصحاب القدم الراسخة في العربية من العُرْبِ الأقحاح، ألا وهو فنُّ البلاغة، الذي يتذوقه العارفون بتصاريف الكلام ودقائق المعاني، فيدركون ما انطوى فيه من أسرار، ويميزون الأساليب الرصينة التي سلكها البيان القرآني في الإيضاح والتبيين، فيقرّون بضعفهم ويُدركون عجزهم عن مجاراة هذا النظم البديع.وفي ذلك يقول الإمام (ابن عاشور): ((وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعاً إلى ثلاث جهات:

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة، ونكتاً من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهوداً في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض))[١]وإنَّ من صُوَرِ هذه البلاغةِ القرآنيةِ الباهرةِ حُسنُ اختيار ألفاظِهِ إذ أتَتْ كلُّ لفظةٍ من ألفاظه مستقرَّةً غيرَ قلقةٍ في موضعها الذي ورَدَتْ فيه، ملائمةً

لسياقها أحسنَ التلاؤم وأكملَهُ. وفي ذلك يقول الرافعي: ((ولمَّا كان الأصل في نظم القرآن أن تُعتبرَ الحروفُ بأصواتِها وحركاتِها ومواقعِها من الدلالة المعنويَّة استحال أن يقعَ في تركيبه ما يُسوِّغ الحكمَ في كلمةٍ زائدة، أو حرفٍ مضطربٍ، أو ما يجري مجرى الحشوِ والاعتراضِ... بل نزلت كلماتُهُ منازلَها على ما استقرَّتْ عليه طبيعةُ البلاغة، وما قد يُشبِهُ أن يكون من هذا النحو الذي تمكَّنت به مفرداتُ النظام الشمسيّ، وارتبطت به سائرُ أجزاء المخلوقات، صفة متقابلة بحيث لو نُزعت كلمةٌ منه أو أُزيلت عن وجهها، ثم أُديرَ لسانُ العرب كلُّهُ على أحسنَ منها في تأليفِها وموقعِها وسَدادِها لم يتهيَّأْ ذلك، ولا اتَّسعت له اللغةُ بكلمةٍ واحدة"[٢]. ويتفرّع على الكلام السابق أنَّ من صُوَرِ حُسنِ اختيار الألفاظ أن تأتيَ صفاتُ الله تعالى الواردةُ في ختام الآية ملائمةً لمضمون الآية، أو لمضمون جملةٍ من الآيات قبلها أو بعدها، أي متناسقةً مع السياق المؤلف من السباق واللحاق.ولقد جسّد (ابن عاشور) رحمه الله نموذجاً فذّاً بين عامّة المفسرين باهتمامه بهذا اللون البلاغي في القرآن الكريم، إذ كرّس جهده في مواضع متعددة بإبراز هذا الوجه التناسبي بين الصفات التي اشتملت عليها بعض خواتيم الآيات وبين مضامين هذه الآيات. ومن هنا أفردت هذا البحث لأجمع بعض النماذج من تفسير ابن عاشور المعروف بـ (التحرير والتنوير) من عباراته التي خصصها للحديث عن هذه الجزئية، وأقارن كلامه بكلام بعض المفسرين ممن كانت لهم عناية بإبراز هذا الجانب البلاغي في القرآن الكريم.

ثانياً: أهمِّيَّة البحث: تأتي أهمِّيَّةُ البحث من حيثُ إنَّه يجمعُ الأمثلةَ التي بيَّنَ فيها ابنُ عاشُور مناسبةَ صفات الله تعالى الواردةِ في ختام الآيات لمضامينها أو لسياقها، ويوضِّحُ هذه المناسبة ويزيدُها بياناً ولا سيَّما المواضع التي أجملَ فيها ابنُ عاشور وجهَ التناسب، ويقارنُ كلامَه بكلام جملة من المفسِّرين الذي اعتنَوا بهذا الجانب أيضاً؛ لبيانِ وجوهِ الاتِّفاقِ والاختلاف بين كلامه وكلامهم، وإثراءِ البحث في هذه الجزئيَّة من جزئيَّات التلاؤم والتناسب، ويُعين القارئَ على التدبُّرِ للقرآن الكريم بقدر الطاقة، ويُسهم في الكشف عن الذَّوق البلاغيّ عند ابن عاشور.

ثالثاً: أسباب اختيار البحث: درست كتاب (التحرير والتنوير)، وتنبّهت أثناء قرائي له أن ابن عاشور لم يأخذ على نفسه – ضمن المنهج العلمي الذي اعتمده في تفسيره – أن يُشير إلى التناسب النظمي بين الصفات الختامية وبين مضامين الآيات أو سياقها، ومع ذلك فإنه أفرد بعض الفقرات التي جادت قريحته بإيضاحها وببيان المناسبة المتعلقة بذلك بالتفصيل أو الإجمال حسب ما يقتضيه السياق، وبذا تُوصّل هذه الجزئية لمنهج فرعي مسكوت عنه في تفسير ابن عاشور، وتؤكد عنايته بالجانب البلاغي عامّة، ثم الجانب النظمي خاصة، ثم الجانب التلاؤمي بين المفردات التي جاءت بصيغة الصفات الإلهية ومضمون الآيات بأخص الخاصة، وهذا ما دعاني إلى اختيار هذا البحث.

رابعاً: الدراسات السابقة: لعل الإشارة إلى هذه الزاوية من البحث جديد من نوعه؛ إذ لم أجد من الباحثين مَن تنبّه إلى هذا الربط بين الصفات الختامية ومضامين الآيات وسياقها ضمن مَن درس تفسير (ابن عاشور)، لا سيما أن (ابن عاشور) لم يُشِر إلى هذه الزاوية البحثية في منهجه العام الذي اعتمده في التفسير، بالإضافة إلى أن النماذج التي توضح هذه الفكرة قليلة في تفسيره. وان كان هناك مؤلف في التناسب عند ابن عاشور ألا أن موضوع البحث يختلف في جوهره من حيث ان عمل الباحث كان يتكلم عن التناسب الصرفي والنحوي والبلاغي وايضا الشكلي والنطقي أما عملي كان دراسة مقارنة مع غيره من المفسرين في موضوع التناسب بين سياق الاية ونهايتها المختوم بالصفات الالهية , وهو عمل لم اجد من سبقني اليه

خامساً: حدود البحث: اقتصرت في هذا البحثُ على دراسة الأمثلة التي بيَّنَ فيها ابنُ عاشور مناسبة صفات الله الواردة في ختام الآيات لمضمون الآيات وسياقها في النِّصف الثاني من القرآن الكريم من سورة الحجِّ حتى نهاية القرآن؛ إذ يصعب حصر جميع الأمثلة في بحث واحد؛ كونها تحتاج إلى إيضاحٍ وبيان ومقارنة ليتميز فهم ابن عاشور عن غيره من المفسرين، وسبب اعتماد النصف الثاني من القرآن الكريم دون النصف الأول في هذا البحث أني أفردت للنصف الأول من القرآن الكريم بحثاً آخر.أما النماذج المختارة للدراسة فهي النماذج التي صرّح فيها ابن عاشور بذكر المناسبة بين الصفات الإلهية الختامية وبين السياق القرآني، دون المواضع التي يُلمح فيها وجه التناسب أو يمكن استنباطه، وهذا سبب اختيار هذه النماذج، وهو تصريح ابن عاشور بذكر المناسبة فيها.

سادساً: منهج البحث: تنوَّع المنهج العلمي الذي بنيت عليه البحث على ركائزَ ثلاث، وهي كما يلي:

أ. **الاستقراء:** وذلك باستقراءِ كتابِ «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» بغيةَ استخراج المواضع التي أوضح فيها (ابن عاشور) مناسبة صفات الله الواردة في ختام الآيات لمضمون الآيات وسياقها.

ب. **التحليل:** وذلك بتحليلِ كلامِ ابنِ عاشور؛ لاستنباطِ المناسبات بين صفات الله الواردة في ختام الآيات ومضمون الآيات وسياقها، وما ينبني على ذلك من فوائد.

ت. **المقارنة:** وذلك بمقارنةِ كلامِ ابنِ عاشور بكلامِ جملة من المفسّرين الذي اعتنَوا بهذا الجانب أيضاً؛ لبيانِ وجوهِ الاتّفاقِ والاختلاف بين كلامه وكلامهم، وإثراءِ البحث في هذه الجزئيَّة من جزئيَّات التلاؤم والتناسب.

خطة البحث:

لكي يتناسق البحث مع النمط العام للأبحاث الأكاديمية فإني قمت بتقسيمه إلى تمهيد وثلاثة مباحث على النحو الآتي:**التمهيد** حول ابن عاشور وتفسيره (التحرير والتنوير)وفيه ثلاثة مطالب:المطلب الأول: حياة (ابن عاشور) ونشأته.المطلب الثاني: روافده الفكرية والمعرفية.المطلب الثالث: منهجه في التفسير.**المبحث الأول: التناسب وأقسامه وعلاقته بالإعجاز القرآني**المطلب الأول: مفهوم التناسب.المطلب الثاني: أنواع التناسب.المطلب الثالث: التناسب وإعجاز القرآن.**المبحث الثاني: النماذج من سورة الحجّ حتّى سورة لقمان.**وفيه خمسة مطالب:**المطلب الأول:** سورة الحج.**المطلب الثاني:** سورة النور.**المطلب الثالث:** سورة العنكبوت.**المطلب الرابع:** سورة الروم.**المطلب الخامس:** سورة لقمان.**المبحث الثالث: النماذج من سورة الأحزاب حتّى آخر القرآن الكريم.**وفيه أربعة مطالب:**المطلب الأول:** سورة الأحزاب.**المطلب الثاني:** سورة فاطر.**المطلب الثالث:** سورة الفتح.**المطلب الرابع:** سورة التغابن.**خاتمة:** تحتوي النتائج.

وإني إذ أخوض غمار هذا البحث فإني لا أدعي أن ما فيه من ترتيب وتهذيب وتحليل كله حق، إنما هو جهد الباحث يقدمه لقرّاء العلم وطلاّبه، وحسبي في ذلك أني بذلت جهدي، فإن وفّقت في ذلك فمن الله وله الحمد، وإن لم أوفّق فمن نفسي، والله ورسوله وعلماء تفسير الكتاب المجيد من هذا الخطأ بُرَآء، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد:

المطلب الأول: حياة (ابن عاشور) ونشأته:

يجد الباحث في حياة ابن عاشور نفسه أمام عالمٍ جليل، تنوعت معارفه، فهو الإمام الأبرز في المغرب أثناء عصره بلا منازع، اسمه محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، ينحدر من أسرة آل عاشور التي يعود أصلها إلى (محمد بن عاشور) المتوفى سنة ١١١٠هـ، والذي وُلد بمدينة (سلا) بالمغرب الأقصى بعد خروج والده من الأندلس فاراً بدينه من القهر والتنصير.[٣]ولد محمد الطاهر ابن عاشور بـ (المرسى) إحدى الضواحي الشمالية لتونس سنة ١٢٩٦هـ – ١٨٧٩م، ولمّا يفع اتجه إلى حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بجامع الزيتونة وصار ينهل من معينه كل العلوم الأساسية لطالب العلم.[٤]

المطلب الثاني: روافده الفكرية والمعرفية:

أولاً: مكانته العلمية:عُرِف الإمام (محمد بن عاشور) بالضلوع العلمي في شتّى فروع الشريعة والفكر والفلسفة، وإن مَن يتتبع سيرة أسرته ومراحل حياته بالتفصيل يكتشف الأبعاد التي تتبلور فيها شخصيته العلمية، فقد ظهر دور أسرة (ابن عاشور) في الحياة التونسية عموماً، ومن هنا فإن أثرها في ابنها وسليلها (ابن عاشور) سيكون أظهر وأولى.

ثانياً: شيوخه:ولقد تعدد أساتذته وشيوخه الذين نهل من علومهم، وكان من أكثرهم تأثيراً فيه:

أ. جدّه لأمه الشيخ (محمد العزيز بوعتور).[٥]

ب. الشيخ (عمر بن أحمد) المعروف بـ (ابن الشيخ وسيدي عمر).[٦]

ت. الشيخ (سالم بو حاجب).[٧]

ثالثاً: تلاميذه:وكذلك تعدد تلاميذه ومَن أخذ عنه وورث علمه، فكان من أهمهم:

أ. محمد الفاضل ابن عاشور، وهو ابن الإمام محمد الطاهر ابن عاشور.

ب. عبد الملك ابن عاشور، وهو الولد الثاني للإمام محمد الطاهر ابن عاشور.

ت. محمد الحبيب ابن الخوجة.[٨]

رابعاً: مؤلفاته:نتيجة نشاط الحركة العلمية التي قام بها ابن عاشور فقد تعددت مؤلفاته، وتوزعت في عديد من العلوم، ومن أهم مؤلفاته:

١- تفسير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد).

٢- (النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح).

٣- (مقاصد الشريعة الإسلامية).

٤- (أصول التقدّم في الإسلام).

٥- (الوقف وأثره في الإسلام).

بالإضافة إلى عدد من المخطوطات التي لم تطبع بعد.(٩)

المطلب الثالث: منهجه في التفسير:

حظي تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير) بمكانة جليلة بين تفاسير القرآن الكريم، وكانت مكانته هذه انعكاساً لما انطوى عليه من علوم ومعارف، حتى غدا تحفة علمية وموسوعة تفسيرية.

أولاً: باعث (ابن عاشور) على تأليف التفسير:((كان أكبر أمنيتي منذ أمد بعيد، تفسير الكتاب المجيد... هنالك عقدت العزم على تحقيق ما كنت أضمرته، واستعنت بالله تعالى واستخرته ... أقدمت على هذا المهم إقدام الشجاع على وادي السباع متوسطاً في معترك أنظار الناظرين، وزائراً بين ضباح الزائرين، فجعلت حقاً علي أن أبدي في تفسير القرآن نكتاً لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها..))(١٠)

ثانياً: خطة (ابن عاشور) في تفسيره:يتناول ابن عاشور تفسير القرآن سورة سورة حسب ترتيبها في المصحف، وقبل أن يشرع في تفسيرها يجعل لكل سورة مقدمة، يذكر فيها اسم السورة وسبب تسميتها بهذا الاسم، ثم ترتيبها في النزول وأسباب نزولها على وجه الإجمال، أما أسباب نزول الآيات ذات السبب فيذكره عند تفسيرها، ثم يذكر عدد آيات السورة، ثم ما إذا كانت السورة مكية أو مدنية، وأخيراً أهم الأغراض التي تحتويها السورة ومقاصدها، مبيناً ما تحمله من وعد ووعيد، وإنذار وبشرى، أو نفي وتوبيخ، أو إثبات وتأييد

ثالثاً: منهج (ابن عاشور) في التفسير:سلك ابن عاشور في تفسيره منهجي الرواية والدراية، أي طريقا التفسير بالمأثور والرأي، وتتحدد مقومات التفسير بالمأثور عنده في تفسير القرآن بالقرآن، والتفسير بالحديث النبوي، والتفسير بأقوال الصحابة، والتفسير بأقوال التابعين، والتفسير بأسباب النزول، والتفسير بالقصص، والتفسير بالناسخ والمنسوخ، والتفسير بالقراءات، والتفسير بأقوال من التوراة والإنجيل.أما مقومات التفسير بالرأي عند ابن عاشور فهي: الشعر، ثم اللغة، ثم علوم البلاغة، ثم الاستعانة بأقوال فقهاء الأمصار، ثم الاستعانة بأقوال الفلاسفة وعلماء الهيئة.

المبحث الأول: التناسب وأقسامه وعلاقته بالإعجاز القرآني:

المطلب الأول: مفهوم التناسب

أولاً: التناسب في اللغة:عرّف ابن فارس التناسب بقوله: ((النون والسين والباء كلمة واحدة مقياسها اتصال شيء بشيء، منه النسب، سمّي لاتصاله وللاتصال به))(١١)وقال ابن منظور: ((النِّسبة والنُّسبة والنَّسب: القرابة ... والنَّسيب المتناسب، وفلانٌ يناسب فلاناً فهو نسيبه أي قريبه، ليس بينهما نسب أي مشاكلة)).(١٢)وقال الزبيدي: ((المناسبة المشاكلة، يقال: بين الشيئين مناسبة وتناسب، أي مشاكلة وتشاكل)).(١٣)

يتبين من التعريفات السابقة أن التناسب يدل على معاني القرابة والاتصال والانسجام، ويشير كذلك إلى وجود الترابط والتشاكل بين المتناسبين، الأمر الذي يتضمن معنى التلاؤم والاتساق بينهما بحيث يشكّلان معاً وحدة مترابطة منسجمة.

ثانياً: التناسب في الاصطلاح:

عرّف السيوطي المناسبة بقوله: ((المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما عامٌ أو خاصّ، عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدّين، ونحوه)).(١٤)ولقد أشار من قبله الزركشي والبقاعي إلى موضوع هذا العلم وفائدته، فقال الزركشي عن فائدة هذا العلم: ((جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلاحم الأجزاء)).(١٥)وقال البقاعي عن موضوع هذا العلم: ((تعرّف علل الترتيب، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء، بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلّق الذي هو كلحمة النسب، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال)).(١٦)فالمفهوم العام للتناسب والمناسبة هو أنه ذلك الترابط الواقع بين الآيات والسور الذي يفضي بشكل ما إلى القول بأن القرآن الكريم مترابط بعضه ببعض وكنصٍ واحد، وأنَّ كل آية منه تفضي إلى ما بعدها، وكذلك السورة تحيل إلى ما يليها، وكذلك يبين ترابط الأجزاء ضمن الآية الواحدة وعلاقاتها بعضها ببعض.(١٧)

المطلب الثاني: أنواع التناسب

يُفهم من كلام البلاغيين أن التناسب يُقسم قسمين، إذ قد يكون تناسباً مقامياً، وقد يكون تناسباً مقالياً، وقد يُعبّر عن التناسب المقامي بالتناسب الحالي، وعن التناسب المقالي باللفظي، وحاصل كل ذلك أن القسمة ثنائية لا أكثر، وعامة تطبيقات التناسب ونماذجه تنضوي ضمن القسمين المقامي والمقالي.

أولاً: التناسب المقامي:والمقصود به مجموع المعطيات التي تراعي غرض الكلام وحال المتكلّم والمخاطب، بمعنى أنها عناصر لا تتعلق بألفاظ النص، إنما بدلالات وإشارات خارجة عنه، سواء قُصد بها مقام الكلام أو حال السامع أو المتكلم.يقول السكّاكي في ذلك: ((إنَّ مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعلى عدم انطباقه)).[١٨]ويقول أيضاً: ((فمقام التشكّر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذمّ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجدّ في ذلك يباين مقام الهزل)).[١٩]وقد أشار الجاحظ إلى هذا النوع من التناسب، فقال: ((ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسّم الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات)).[٢٠]فالحاصل مما تقدّم أن المقصود من التناسب المقامي مراعاة قرائن النص من الأحوال التي تناسبه حسب سياقه، والتي يتفرّع عنها مراعاة حال المتكلّم والسامع وغرض الكلام، وفي ذلك يقول القزويني: ((فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة)).[٢١]

ثانياً: التناسب المقالي: ويُقصد به التلاؤم بين أجزاء النصّ ومقاطعه وكلماته، ويُلحظ هذا التلاؤم في فصاحة الكلام وملائمته للسياق، وحسن الانتقال من معنى إلى آخر، ومن غرض إلى غرض، وسوق الألفاظ والتعبيرات المناسبة لكل ذلك.ولا يخفى أن هذا الجانب هو أحد أهم الأسس في نظرية النظم، والتي تشير إلى وظيفة الكلمة في موضعها، حيث قال عبد القاهر الجرجاني في ذلك: ((فإنّك ترى الكلمة تروقك وتُؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر)).[٢٢]ويتضمّن التناسب المقالي أيضاً حُسن الانتقال من معنى إلى آخر، ودقة التأليف بين أجزاء الكلام على وجه تتصل فيه المعاني بعضها ببعض دون إخلال أو انقطاع، وإلى هذا يشير ابن الأثير بقوله: ((أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه خذاً برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أُفرغ إفراغاً)).[٢٣]

المطلب الثالث: التناسب وإعجاز القرآن

إنَّ من يقرأ كلام العلماء حول إعجاز القرآن الكريم يتيقن أنهم جعلوا مبدأ التناسب بين الألفاظ وسياقها من أهم الأصول المعتمدة لبيان المعنى الجانب في القرآن الكريم، لذا فإن التناسب في الألفاظ والمعاني، أو كما سبق في المقام والمقال لهو الجانب الأبرز من خصائص الإعجاز في الآيات والسور.ولقد أشار فخر الدين الرازي إلى هذا المعنى حيث قال في حديثه عن أطراف البلاغة التي ترجع إلى النظم والتركيب: ((الطرف الأعلى هو أن يقع ذلك التركيب بحيث يمتنع أن يوجد ما هو أشدّ تناسباً واعتدالاً في إفادة ذلك المعنى منه)).[٢٤]ولقد قصد الرازي من قوله (الطرف الأعلى) أي الصنف الأعلى والنوع الأرقى من إعجاز القرآن الكريم، وذلك بأن تتناسب الألفاظ في إفادة المعنى تناسباً يمتنع معه أن يحلّ محله لفظ أو تركيب آخر.وقد كان لعبد القاهر الجرجاني السبق في تقرير أهمية التناسب في إعجاز القرآن الكريم، وذلك في معرض تقعيده لنظرية النظم التي أبرزها، حيث وجد أن النظم يعتمد في الدرجة الأولى على التناسب والتلاؤم والانسجام، حيث قال: ((إنّهم تأملوه سورة سورة وعشراً عشراً وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة يُنكر شأنها، أو يُرى غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً لم يدع في نفس بليغ منهم – ولو حكّ بيافوخه السماء – موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول)).[٢٥]وإنَّ من أكثر المواضع التي يتجلّى فيها التناسب المعجز في استعمال الألفاظ بحيث لا يسدّ غيرها مكانها هي الفواصل القرآنية، حيث قال السيوطي في وصفها: ((متمكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في مواضعها، متعلّقاً معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقاً تاماً بحيث لو طُرحت لاختلّ المعنى واضطرب الفهم، وبحيث لو سُكت عنها كمّله السامع بطبعه)).[٢٦]ومن الكلام السابق يتبين أهمية الفاصلة القرآنية، وكونها الركن الأبرز في إعجاز القرآن الكريم، وهذا الكلام بطبيعة الحال يتضمّن الإشارة إلى أهمية الصفات الإلهية الواقعة في خواتيم الآيات وفواصلها، وكونها تحمل دلالة إعجازية تستدعي دراستها والاهتمام بها.

المبحث الثاني: النماذج من سورة الحجّ حتى سورة لقمان.

المطلب الأوّل: المثال الوارد في سورة الحج.

قولُهُ تعالى: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٧٤].

يقول ابن عاشور في بيان الصفتين الواردتين ومناسبتهما للسياق: ((وجملة {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} تعليلٌ لمضمونِ الجملةِ قبلها؛ فإنَّ ما أشركوهم مع الله في العبادة كلُّ ضعيفٍ ذليلٍ، فما قَدَروهُ حقَّ قَدْرِهِ؛ لأنَّهُ قويٌّ عزيزٌ، فكيفَ يشاركُهُ الضَّعيفُ الذَّليلُ؟!))(٢٧). ويؤخذُ من كلامه: أن جملة {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} استئنافٌ تعليليٌّ(٢٨).وتجدر الإشارة إلى أمر يتعلّق بهذا المثال وما بعده من الأمثلة؛ وهو أن ختم الكلام بما يناسب ابتداءه في المعنى يسمَّى في علم البلاغة تشابهَ الأطرافِ، وهو داخل في مراعاة النظير؛ وهي أن يجمع المتكلم بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة لا على جهة التضاد(٢٩).ومن أبرز عناصر جماليَّة هذا الفنِّ البلاغي: الانسجامُ والتساوقُ والتناغمُ، وهي أمور لا يُشكُّ في انتمائِها إلى الجمال، وإيقاظِها الحسَّ الجماليَّ، وهذا الفنُّ البديعيُّ يُضفي على الكلام مظهراً من مظاهر القوَّة والمتانة؛ فإن المعانيَ المتناسبة يُعزِّزُ بعضُها دلالةَ بعضٍ، ويشدُّ أَزْرَها(٣٠).   وبيانُ وجهِ المناسبة متوقّفٌ على النظر فيما وردَ قبل هذه الآية: فقد جاء قبل هذه الآية قولُهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}[الحج: ٧٣]، وهو مَثَلٌ ضُربَ لعجزِ آلهة المشركينَ وضعفِها، ثمَّ جاءت هذه الآيةُ لبيان أنَّ المشركين ما عظَّموا الله تعالى حقَّ تعظيمِه؛ حيثُ جعلوا هذه الأصنامَ على نهاية خَساستِها شريكةً له في المعبوديَّةِ، وأُكِّدَ هذا الغرضُ بختم الآيةِ بصفتَي القُوَّةِ والعِزَّةِ؛ لبيان أن المستحِقَّ للعبادة والتعظيم هو القويُّ العزيزُ، لا العاجزُ الذَّليلُ.وذهب أيضاً إلى هذا المعنى جملة من المفسرين، منهم الإمام (ابنُ عطيَّة)، الذي قال في بيان مناسبة صفتَي القُوَّةِ والعِزَّةِ لمضمون الآيةِ: ((والضميرُ في {قَدَرُوا} للكفَّارِ، والمعنى: ما وفَّوهُ حقَّهُ من التعظيمِ والتوحيدِ، ثمَّ أخبرَ بقوَّةِ اللهِ وعزَّتِهِ، وهما صفتانِ مناقضتانِ لعجزِ الأصنامِ))(٣١).وأشارَ (البيضاويُّ) أيضاً إلى هذه المناسبةِ؛ فقال: (({إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ} على خلقِ الممكناتِ بأسرِها {عَزِيزٌ} لا يغلبُهُ شيءٌ، وآلهتُهم التي يعبدونَها عاجزةٌ عن أقلِّها، مقهورةٌ من أذلِّها))(٣٢). وتبعَهُ (أبو السُّعود) فقال: (({إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ} على خلقِ الممكناتِ بأَسْرِها، وإفناءِ الموجوداتِ عن آخرِها {عَزِيزٌ} غالبٌ على جميعِ الأشياءِ، وقد عُرِفَتْ حالُ آلهتِهم المقهورةِ لأذلِّها، العاجزةِ عن أقلِّها))(٣٣).

المطلب الثاني: المثالان الواردان في سورة النور.

المثال الأول: قولُهُ تعالى: {وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النور: ١٨]. ذكر ابن عاشور أنَّ المرادَ بتبيينِ الآياتِ: جعلُها واضحةَ الدلالةِ على المقصود، والمرادَ بالآيات: آياتُ القرآن النازلةُ في عقوبةِ القَذْفِ وموعظةِ الغافلينَ عن المحرَّماتِ(٣٤)، ثمَّ أجملَ وجهَ مناسبةِ الوصفينِ للآيةِ؛ فقال: ((ومناسبةُ التذكيرِ بصفتَي العلمِ والحكمةِ ظاهرةٌ))(٣٥).لم يفصّل ابن عاشور في وجه المناسبة؛ لتقدُّمِ ذلك في مواضع سابقة؛ فقد جرَتِ العادةُ بختمِ كثيرٍ من آيات الأحكامِ بمِثلِ هاتينِ الصِّفتينِ.ولقد ذكر ابن عاشور وجه المناسبة بين هاتين الصفتين والسياق الذي وردتا به في مواضع متعددة، ففي تفسير قوله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النساء: ٢٦] قال ابن عاشور: ((وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ مُنَاسِبٌ لِلْبَيَانِ وَالْهِدَايَةِ وَالتَّرْغِيبِ فِي التَّوْبَةِ بِطَرِيقِ الْوَعْدِ بِقَبُولِهَا، فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ أَثَرُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ فِي إِرْشَادِ الْأُمَّةِ وَتَقْرِيبِهَا إِلَى الرشد))(٣٦).وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٧١] ((وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ تَذْيِيلٌ، أَيْ عَلِيمٌ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ حَكِيمٌ فِي مُعَامَلَتِهِمْ عَلَى حَسَبِ مَا يعلم مِنْهُم))(٣٧).وفي تفسير قوله تعالى: {وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١٥]، يقول ابن عاشور: ((وَالتَّذْيِيلُ بِجُمْلَةِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِإِفَادَةِ أَنَّ اللَّهَ يُعَامِلُ النَّاسَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَأَنَّهُ حَكِيمٌ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا فِيهِ تَحْقِيقُ الْحِكْمَةِ، فَوَجَبَ عَلَى النَّاسِ امْتِثَالُ أَوَامِرِهِ، وَأَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تكثيرا للصلاح))(٣٨).وكذا كان الشأن أيضاً عند (ابن عطية)، فقد ذكر الصفتين على سبيل الإجمال فقال: ((و{عَلِيمٌ حَكِيمٌ} صفتانِ تقتضيهما الآيةُ))(٣٩).ويلاحظ: أنَّهُ أشارَ إلى مناسبة الصفتينِ للآية من غير بيان وجهِ اقتضائها لهما. وأمَّا (الرازيُّ) فجاء بالمعنى مفصَّلاً، فقال بعد أن ذكرَ أنَّ المرادَ من الآياتِ: ما به يعرفُ المرءُ ما ينبغي أن يتمسَّكَ به، وذكر أنَّه تعالى لأنَّه عليم حكيم يجبُ أن يُطاعَ: ((لأنَّ من لا يكونُ عالماً لا يجبُ قبولُ تكليفِهِ؛ لأنَّهُ قد يأمرُ بما لا ينبغي، ولأنَّ المكلَّفَ إذا أطاعَهُ فقد لا يعلمُ أنَّهُ أطاعَهُ، وحينئذ لا يبقى للطاعةِ فائدةٌ، وأمَّا من كانَ عالماً لكنَّهُ لا يكونُ حكيماً.. فقد يأمرُهُ بما لا ينبغي، فإذا أطاعَهُ المكلَّفُ فقد يُعذِّبُ المطيعَ، وقد يُثيبُ العاصيَ، وحينئذ لا يبقى للطاعةِ فائدةٌ، وأمَّا إذا كانَ عليماً حكيماً فإنَّهُ لا يأمرُ إلا بما ينبغي، ولا يُهملُ جزاءَ المستحِقِّينَ؛ فلهذا ذكرَ هاتينِ الصِّفتينِ، وخصَّهما بالذِّكرِ))(٤٠).

المثال الثاني: قولُهُ تعالى: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [النور: ٣٢].

قال ابنُ عاشور: ((وذكرُ {عَلِيمٌ} بعدَ{وَاسِعٌ} إشارةٌ إلى أنَّهُ يُعطي فضلَهُ على مقتضى ما علمَهُ من الحكمةِ في مِقدارِ الإعطاءِ))(٤١). ويلاحظ: أنَّهُ بيَّنَ مناسبةَ ذكر الوصف الثاني بعد الأوَّل(٤٢)، وفي ضمن ذلك إشارةٌ إلى مناسبة الوصفينِ معاً للآية. وأكّد (ابنُ عطيّة) هذا المعنى فقال: ((وقولُهُ: {وَاسِعٌ عَلِيمٌ} صفتانِ نحوُ المعنى الذي فيهِ القولُ؛ أي: واسعُ الفضلِ، عليمٌ بمستحِقّ التوسعةِ والإغناءِ))(٤٣).وقوله: ((صفتانِ نحوُ المعنى الذي فيه القولُ»؛ يعني: أنَّهما صفتانِ مناسبتانِ للمعنى الذي تتحدَّثُ عنه الآيةُ؛ لأن الآية بحسَبِ الظاهر فيها وعدٌ من الله تعالى بإغناءِ من يتزوَّجُ والتوسعةِ عليه؛ فناسب ذلك ذكرُ هاتينِ الصِّفتينِ؛ فهو سبحانه وتعالى واسعُ الفضل والعطاء، يُعطي ويمنعُ بمقتضى علمِهِ وحكمتِهِ)). ويقول (الرازي): ((أما قوله وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ فالمعنى أنه سبحانه في الإفضال لا ينتهي إلى حد تنقطع قدرته على الإفضال دونه لأنه قادر على المقدورات التي لا نهاية لها وهو مع ذلك عليم بمقادير ما يصلحهم من الإفضال والرزق)).(٤٤)ويؤكد (البيضاوي) المعنى الذي ذكره (الرازي)، فيقول: (({وَاللهُ واسع} ذو سعة لا تنفد نعمته إذ لا تنتهي قدرته، {عَلِيمٌ} يبسط الرزق ويقدر على ما تقتضيه حكمته))(٤٥)

المطلب الثالث: المثال الوارد في سورة العنكبوت.

قولُهُ تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت: ٢٦]. قال ابنُ عاشور في جملة {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}: ((وهي جملةٌ واقعةٌ موقعَ التعليلِ لمضمونِ: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}؛ لأنَّ من كان عزيزاً يعتزُّ به جارُهُ ونَزيلُهُ، وإتباعُ وصفِ العزيزِ بالحكيمِ لإفادةِ أنَّ عِزَّتَهُ مُحكَمَةٌ واقعةٌ موقعَها المحمودَ عند العُقَلاءِ؛ مِثلُ نصرِ المظلومِ، ونصرِ الدَّاعي إلى الحقِّ، ويجوز أنْ يكونَ الحكيمُ بمعنى الحاكمِ، فيكون زيادةَ تأكيد معنى العزيز))(٤٦).ويلاحظ: أنَّهُ مع بيانه لمناسبة الوصفينِ لقوله تعالى: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} بيَّنَ مناسبةَ ذكرِ الوصفِ الثاني بعد الأوَّل. ويؤخذ من كلامه: أنَّ جملة {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} استئنافٌ تعليليٌّ، وقد مرَّ في أكثر من موضع أن الصفات التي هي موضوعُ البحث غالباً ما تأتي في استئناف تعليليٍّ أو تذييلٍ(٤٧). وقال ابنُ عطيَّةَ في بيان مناسبة صفتَي العِزَّة والحكمةِ لذكر الهجرةِ إليه تعالى: ((وقولُهُ: {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} مع الهجرةِ إليهِ.. صفتانِ بليغتانِ تقتضي استحقاقَ التوكُّلِ عليهِ))(٤٨).وقد أشار (الزمخشري) قبله إلى قريب من هذا المعنى، فقال: (({إِنَّهُ هُوَ العزيز} الذي يمنعني من أعدائي {الحكيم} الذي لا يأمرني إلا بما هو مصلحتي))(٤٩)، وأكّد (البيضاوي) أيضاً المعنى الذي أشار إليه (الزمخشري) دون بيانٍ منهما لمناسبة الصفتين لمضمون الآية.(٥٠)

المطلب الرابع: المثال الوارد في سورة الروم.

قولُهُ تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الروم: ٢٧].

قال (ابن عاشور): ((وَمِنْ جُمْلَةِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى عِزَّتُهُ وَحِكْمَتُهُ تَعَالَى فَخُصَّا بِالذِّكْرِ هُنَا لِأَنَّهُمَا الصِّفَتَانِ اللَّتَانِ تَظْهَرُ آثَارُهُمَا فِي الْغَرَضِ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهُ وَهُوَ بَدْءُ الْخَلْقِ وَإِعَادَتُهُ فَالْعِزَّةُ تَقْتَضِي الْغِنَى الْمُطلَقَ فَهِيَ تَقْتَضِي تَمَامَ الْقُدْرَةِ. وَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي عُمُومَ الْعِلْمِ. وَمِنْ آثَارِ الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ أَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ وَأَنَّ الْغَايَةَ مِنْ ذَلِكَ الْجَزَاءُ وَهُوَ من حكمته))(٥١)أي: أنَّ الآية تتحدَّثُ عن قضيَّة البعثِ وإعادةِ الخلق، وهو أمرٌ لا يكون إلا للقادرِ الحكيمِ الذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، المتصرِّفِ في خلقِه بما يشاءُ؛ فناسبَ ذكرُ هاتينِ الصِّفتينِ مضمونَ الآية غايةَ المناسبة.

وفي هذا المعنى أيضاً يقول (ابنُ عطيَّة) في بيان مناسبة صفتَي العِزَّةِ والحكمةِ للآية: ((والعِزَّةُ والحكمةُ صفتانِ موافقتانِ لمعنى الآيةِ؛ فبهما يُعيدُ، ويُنفِذُ أمرَهُ في عبادِهِ كيف شاءَ))(٥٢).وقريبٌ من ذلك قولُ الزمخشريِّ(٥٣٨هـ): (({وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}؛ أي: الوصفُ الأعلى الذي ليس لغيره مِثلُهُ، قد عُرِفَ به ووُصِفَ في السماوات والأرض على ألسنةِ الخلائقِ وألسنةِ الدلائلِ؛ وهو أنَّهُ القادرُ الذي لا يعجزُ عن شيءٍ مِنْ إنشاءٍ وإعادةٍ وغيرِهما من المقدورات، ويدلُّ عليهِ قولُهُ تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}؛ أي: القاهرُ لكلِّ مقدورٍ، الحكيمُ الذي يُجري كلَّ فعلٍ على قضايا حكمتِهِ وعلمِهِ))(٥٣).ويلاحظ: أنَّهُ جعلَ جملةَ {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} دليلاً على تفسير المَثَل الأعلى بالوصفِ الأعلى؛ وهو أنَّهُ سبحانه وتعالى القادرُ الذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ومن جملة مقدوراته الإنشاءُ والإعادةُ المذكورانِ في صدرِ الآيةِ؛ فظهَرتْ مناسبةُ الصِّفتينِ للآيةِ غايةَ الظُّهور.

المطلب الخامس: المثالان الواردان في سورة لقمان.

المثال الأول: قولُهُ تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ١٦]. لعلَّ وجه مناسبة صفتي (اللطيف والخبير) في هذه الآية تظهر بوضوح فيما ذكرَهُ ابنُ عاشور؛ من أنَّ اللطيفَ: هو من يعلمُ دقائقَ الأشياءِ، ويسلكُ في إيصالها إلى من تصلُحُ لهُ مَسْلكَ الرِّفقِ، فهو وصفٌ مُؤذِنٌ بالعلمِ والقُدرةِ الكاملينِ؛ أي: يعلمُ ويَقدِرُ ويُنفِذُ قُدرتَهُ، وفي تعقيبِ {يَأْتِ بِهَا اللَّهُ} بوصفِهِ بـ (اللطيفِ).. إيماءٌ إلى أنَّ التمكُّنَ منها وامتلاكَها بكيفيَّةٍ دقيقةٍ تناسبُ فَلْقَ الصخرةِ واستخراجَ الخردلةِ منها مع سلامتِهما وسلامةِ ما اتَّصلَ بهما من اختلالِ نظامِ الصُّنعِ(٥٤).ويقول (ابنُ عطيَّة) في بيان مناسبةِ وصفَي اللطيفِ والخبيرِ

للآية: ((و{لَطِيفٌ خَبِيرٌ} صفتانِ لائقتانِ بإظهارِ غرائبِ القُدرةِ))(٥٥).والحاصل: أنَّ لُقمانَ إنَّما قصدَ إعلامَ ابنِهِ بقَدْرِ قُدرةِ اللهِ تعالى(٥٦)، فضربَ له هذا المَثَلَ؛ تنبيهاً على قُدرةِ الله تعالى وإحاطةِ علمِهِ، وهذا يناسبُهُ ذكرُ هاتينِ الصِّفتينِ في ختامِ الآيةِ؛ لأنَّهما تُنبِئانِ عن القُدرةِ والعلمِ.

المثال الثاني: قولُهُ تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ٣٤]. قال ابنُ عاشور: ((وجملةُ {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} مستأنفةٌ ابتدائيَّةٌ واقعةٌ موقعَ النَّتيجةِ لِمَا تضمَّنَهُ الكلامُ السابقُ؛ من إبطالِ شُبهةِ المشركينَ بقولِهِ تعالى: {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} ... والمعنى: أنَّ الله عليمٌ بمدى وعدِهِ(٥٧)، خبيرٌ بأحوالِكم ممَّا جمعَهُ قولِهِ: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا} إلخ؛ ولذا جمعَ بينَ الصِّفتينِ: صفةِ {عَلِيمٌ}، وصفةِ {خَبِيرٌ}؛ لأنَّ الثانيةَ أخصُّ))(٥٨).ويلاحظ: أنَّهُ بيَّنَ ارتباطَ الآيةِ بالآيةِ التي قبلها من خلال جملة {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}، وبيَّنَ أيضاً مناسبةَ ذكرِ الصِّفةِ الثانيةِ – وهي (خبيرٌ) – بعد الصِّفةِ الأُولى؛ وهي (عليمٌ).وقال (ابنُ عطيَّة) في بيانِ مناسبة وصفَي العليمِ والخبيرِ لمضمونِ الآيةِ: ((و{عَلِيمٌ خَبِيرٌ} صفتانِ مشابهتانِ لمعنى الآيةِ))(٥٩).ويقصد بقولِه: "مشابهتانِ لمعنى الآية": أنَّهما مناسبتانِ لمضمونِ الآيةِ؛ وهو بيانُ الأمورِ التي استأثرَ اللهُ تعالى بعلمِها؛ فوصفا العليمِ والخبيرِ يناسبانِ ذلك غايةَ التناسبِ. ويُفهَمُ من كلامِ الرازيِّ أنَّ ذكرَ هذينِ الوصفينِ عقِبَ الأمورِ التي اختصَّ اللهُ تعالى بعلمِها.. يُشبِهُ ذكرَ العامِّ بعد الخاصِّ؛ قال: ((ثمَّ قالَ تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} لمَّا خصَّصَ أوَّلاً علمَهُ بالأشياءِ المذكورةِ بقولِه: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}.. ذكرَ أنَّ علمَهُ غيرُ مختصٍّ بها، بل هو عليمٌ مطلقاً بكلِّ شيءٍ، وليسَ علمُهُ علماً بظاهرِ الأشياءِ فحسْبُ، بل خبيرٌ؛ علمُهُ واصلٌ إلى بواطنِ الأشياءِ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ))(٦٠). ويؤخذ من مجموع أقوالِ هؤلاءِ المفسِّرين: غزارةُ المعاني التي يمكن أن يُفسَّرَ بها وجهُ مناسبة هذين الوصفين للآية، وهذا وجهٌ من وجوهِ بلاغة هذا الكتاب المُعجِزِ.

المبحث الثالث: النماذج من سورة الأحزاب حتى آخر القرآن الكريم.

المطلب الأول: المثال الوارد في سورة الأحزاب.

قولُهُ تعالى: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} [الأحزاب: ٥١].

بيَّنَ ابنُ عاشور مناسبةَ الصفتينِ (عليماً وحليماً) فقال: ((والتذييلُ بقولِهِ:{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} كلامٌ جامعٌ لمعنى الترغيبِ والتحذيرِ؛ ففيهِ ترغيبُ النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الإحسانِ بأزواجِهِ وإمائِهِ والمتعرِّضاتِ للتزوُّجِ به، وتحذيرٌ لهنَّ من إضمارِ عدمِ الرِّضى بما يَلْقَيْنَهُ من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وفي إجراء صفتَيْ {عَلِيمًا حَلِيمًا} على اسمِ الجلالة إيماءٌ إلى ذلك؛ فمناسبةُ صفةِ العليمِ لقولِهِ: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} ظاهرةٌ، ومناسبةُ صفةِ الحليمِ باعتبارِ أنَّ المقصودَ ترغيبُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم في أليقِ الأحوالِ بصفة الحليمِ؛ لأنَّ همَّهُ صلَّى الله عليه وسلَّم التخلُّقُ بخُلُقِ اللهِ تعالى، وقد أجرى الله عليه صفاتٍ من صفاتِهِ؛ مِثْلَ رؤوفٍ رحيمٍ، ومِثْلَ شاهدٍ))(٦١).

وحاصلُ كلامه: أنَّ مناسبةَ صفة العليم تدلُّ عليها قرينةٌ لفظيَّةٌ في الآيةِ؛ وهي قولُهُ تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}، وأمَّا مناسبةُ صفةِ الحليمِ فيدلُّ عليها أحدُ غرضَي الكلام هنا؛ وهو ترغيبُهُ صلَّى الله عليه وسلَّم في الإحسان.وقال ابنُ عطيَّة في بيان مناسبة قولِهِ: {حَلِيمًا} للآيةِ: ((وقولُهُ: {حَلِيمًا} صفةٌ تقتضي صَفْحاً وتأنيساً في هذا المعنى؛ إذ هي خواطرُ وفِكَرٌ لا يملكُها الإنسانُ في الأغلبِ))(٦٢).

ويلاحظ: أنَّهُ بيَّنَ مناسبةَ صفة الحِلمِ فقط، ولم يبيِّنْ مناسبةَ صفةِ العلمِ.

المطلب الثاني: المثال الوارد في سورة فاطر.

قولُهُ تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر: ٤٤]. أوضح ابنُ عاشور مع مناسبة ذكر صفتي العلم والقدرة في تذييل الآية فقال: ((وجملةُ {إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً} تعليلٌ لانتفاءِ شيءٍ يغالبُ مرادَ الله بأنَّ اللهَ شديدُ العلمِ واسعُهُ، لا يخفى عليه شيءٌ، وبأنَّهُ شديدُ القُدرةِ، وقد حصرَ هذانِ الوصفانِ انتفاءَ أن يكونَ شيءٌ يُعجِزُ اللهَ؛ لأنَّ عجزَ المريدِ عن تحقيقِ إرادتِهِ: إمَّا أن يكونَ سببُهُ خفاءَ موضعِ تحقُّقِ الإرادةِ، وهذا يُنافي إحاطةَ العلمِ، أو عدمَ استطاعةِ التمكُّنِ منهُ، وهذا يُنافي عمومَ القُدرةِ))(٦٣).وأشار قال (ابنُ عطيَّة) إلى قريب من هذا المعنى فقال: ((و{عَلِيمًا قَدِيرًا} صفتانِ لائقتانِ بهذا الموضعِ؛ لأنَّ مع العلمِ والقُدرةِ لا يتعذَّرُ شيءٌ))(٦٤).بيانُ ذلك: أنَّ السِّياقَ للتهديدِ والوعيدِ؛ فبعد أن توعَّدَهم تعالى في الآيةِ السابقةِ بسُنَّةِ الأوَّلينَ في العذابِ والهلاكِ بقولِه: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} وقَّفَهم في هذه الآية على رؤيتهم لِمَا رأوا من ذلك في طريق الشام وغيره كديار ثمودَ ونحوِها(٦٥)، والتهديدُ والوعيدُ يناسبُهُ ذكرُ الصِّفاتِ التي تدلُّ على قُدرة المتوعِّدِ على إنفاذ وعيدِهِ. وقريبٌ من ذلك أيضاً قولُ (أبي السُّعودِ): ((وقولُهُ تعالى: {إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً}

أي: مُبالغاً في العلمِ والقُدرةِ؛ ولذلكَ علمَ بجميعِ أعمالِهم السَّيِّئةِ، فعاقبَهم بموجَبِها.. تعليلٌ لذلكَ))[٦٦].وقولُهُ: ((تعليلٌ لذلكَ)) أي: تعليلٌ لكونه سبحانه وتعالى لا يُعجِزُهُ شيءٌ[٦٧].وعلى العموم فإنه من الواضح أن الكلام الذي أورده (ابن عاشور) فيه زيادة إيضاح وبيان على المعاني التي ذكرها (ابن عطية) وأبو السعود.

المطلب الثالث: المثالان الواردان في سورة الفتح.

المثال الأول: قولُهُ تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الفتح: ٤]. بيّن ابنُ عاشور وجه المناسبة بين الصفات الختامية في هذه الآية وبين مضمون الآية بقولِهِ: ((وجملةُ {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} تذييلٌ لِمَا قبلَهُ من الفتحِ والنَّصرِ وإنزالِ السَّكينةِ في قلوبِ المؤمنينَ، والمعنى: أنَّهُ عليمٌ بأسبابِ الفتحِ والنَّصرِ، وعليمٌ بما تطمئنُّ به قلوبُ المؤمنينَ بعد البَلْبَلَةِ، وأنَّهُ حكيمٌ يضعُ مقتضَياتِ علمِهِ في مواضعِها المناسبةِ وأوقاتِها الملائمةِ))[٦٨].ولعل ابن عاشور ١ تأثّر بـ (ابن عطية) في توجيه الصفات في هذا الموضع، حيث قال (ابنُ عطيَّة) في بيان مناسبة قوله تعالى: {عَلِيمًا حَكِيمًا} ١ للآية: ((والعلمُ والإحكامُ صفتانِ مقتضيتانِ عِزَّةَ النَّصرِ لمن أرادَ الموصوفُ بهما نَصْرَهُ))[٦٩].وقوله: ((لمن أرادَ الموصوفُ بهما نصرَهُ)) يعني: لمن أراد الله تعالى نصرَهُ؛ فالموصوفُ بالعلم والحكمة هو الله تعالى.ويلاحظ: أنَّهُ أجملَ وجهَ المناسبةِ هنا، ولم يُبيِّنْهُ، وسيأتي نوعُ بيانٍ له في المثال الآتي في قوله: ((قرنَ بالحكمةِ والعلمِ من حيثُ وعدُهُ بمغيَّباتٍ)).وأمَّا (الرازيُّ) فقد وجّه المناسبة توجيهاً مختلفاً إذ لم يرَ أنَّ المناسبة هي تأكيدُ ما سبق من الفتحِ والنَّصرِ وإنزالِ السَّكينة في قلوب المؤمنين، بل بيّنَ أوّلاً مناسبة (عليماً) لما قبله من ذكر الإيمان الذي هو من أعمال القلوب، ثمَّ بيَّنَ مناسبة ذكر (حكيماً) بعد (عليماً)؛ فقال ((وقولُهُ تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} لمَّا قال: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وأيضاً لمَّا ذكرَ أمرَ القلوبِ بقولِهِ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}، والإيمانُ من عملِ القلوبِ.. ذكرَ العلمَ؛ إشارةً إلى أنَّهُ يعلمُ السرَّ وأخفى، وقولُهُ: {حَكِيمًا} بعد قولِهِ: {عَلِيمًا} إشارةٌ إلى أنَّهُ يفعلُ على وَفْقِ العلمِ؛ فإنَّ الحكيم من يعملُ شيئاً متقَناً ويعلمُهُ؛ فإنَّ من يقعُ منه صُنعٌ عجيبٌ اتِّفاقاً لا يقالُ له: حكيمٌ، ومن يعلمُ ويعملُ على خلافِ العلمِ لا يقالُ له: حكيمٌ))[٧٠].

المثال الثاني: قولُهُ تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح: ٧].

قال ابنِ عاشور: ((هَذَا نَظِيرُ مَا تَقَدَّمَ آنِفًا إِلَّا أَنَّ هَذَا أُوثِرَ بِصِفَةِ عَزِيزٍ دُونَ عَلِيمٍ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ الْجُنُودِ هُنَا الْإِنْذَارُ وَالْوَعِيدُ بِهَزَائِمَ تَحِلُّ بِالْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ فَكَمَا ذُكِرَ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فِيمَا تَقَدَّمَ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ نصر النبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ بِجُنُودِ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمَا ذُكْرُ مَا هُنَا لِلْوَعِيدِ بِالْهَزِيمَةِ فَمُنَاسَبَةُ صِفَةِ عَزِيزٍ، أَيْ لَا يغلبه غَالب))[٧١].ولقد توسّع (ابنُ عطيَّة) في بيان المناسبة، فعقدَ مقارنةً بين هذه الآية وآيةٍ أخرى تُشبهُها في هذه السورة؛ وهي قولُهُ تعالى فيما سبقَ:{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}؛ لبيانِ سرِّ قوله هنا:{وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}، وقوله فيما سبقَ:{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}، فقال: ((وقال تعالى في هذه:{وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}، فذكرَ صفةَ العِزَّةِ من حيثُ تقدُّمَ الانتقامُ من الكفَّارِ، وفي التي قبلُ قرنَ بالحكمةِ والعلمِ من حيثُ وعدُهُ بمغيَّباتٍ، وقرنَ باللفظتينِ ذكرَ جنودِ اللهِ تعالى التي منها السَّكينةُ، ومنها نقِمُهُ من المنافقينَ والمشركينَ، فلكلٍّ لفظٍ وجهٌ من المعنى))[٧٢].والحاصل: أنَّهُ ذكر هنا صفةَ العِزَّةِ؛ لأنَّهُ جاء قبل هذه الآية قولُهُ تعالى:{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[الفتح: ٦]، وفيه ذكرُ الانتقام من المنافقينَ والمشركينَ، وهذا يناسبُهُ ذكرُ العِزَّةِ التي بها يقتدرُ المنتقِمُ إنفاذ انتقامِهِ، وأمَّا فيما سبقَ فالحديثُ عن وعدٍ بأمرٍ غيبيٍّ؛ هو ازديادُ إيمان المؤمنين، وهذا يناسبُهُ ذكرُ العلمِ؛ لأنَّ الإيمانَ من أعمال القلوب الخفيَّة التي لا يطَّلعُ عليها غيرُهُ سبحانه وتعالى.وهنا تظهر دِقَّةُ البحث في أسرار اختيار كل كلمة من كلمات التنزيل الحكيم؛ لأن النَّظرةَ العَجْلى قد تحكم بأنَّ خاتمة الآيتين ينبغي أن يكون واحدةً ولا سيَّما بعد تقدُّمِ قولِهِ تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} في الآيتين.وقريبٌ من قولِ ابن عطيَّة قولُ (الرازيّ) مستشهداً بنظائرَ في القرآن الكريم: ((قال هناك: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}، وهنا: {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}؛ لأنَّ قولَهُ: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} قد بيَّنَّا أنَّ المقصودَ من ذكرهم الإشارةُ إلى شِدَّةِ العذاب، فذكر العِزَّةَ؛ كما قال تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ} [الزمر: ٣٧]، وقال تعالى: {فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر: ٤٢]، وقال تعالى: {الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ}[الحشر: ٢٣]))[٧٣].وقولُ أبي السُّعودِ: ((وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} إعادةٌ لما سبقَ، قالُوا: فائدتُها التنبيهُ على أنَّ للهِ تعالى جنودَ الرحمةِ وجنودَ العذابِ، وأنَّ المرادَ ها هنا: جنودُ العذابِ؛ كما يُنبئُ عنه التعرُّضُ لوصفِ العِزَّةِ))[٧٤].

المطلب الرابع: المثال الوارد في سورة التغابن.

قولُهُ تعالى: {إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [التغابن: ١٧-١٨]قال ابن عاشور في بيان مناسبة صفتي (شكور وحليم): ((وَالشَّكُورُ: فَعُولٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ مُبَالَغَةً، أَيْ كَثِيرِ الشُّكْرِ وَأُطْلِقَ الشُّكْرُ فِيهِ عَلَى الْجَزَاءِ بِالْخَيْرِ عَلَى فِعْلِ الصَّالِحَاتِ تَشْبِيهًا لِفِعْلِ الْمُتَفَضِّلِ بِالْجَزَاءِ بِشُكْرِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ عَلَى نِعْمَةٍ وَلَا نِعْمَةَ عَلَى اللَّهِ فِيمَا يَفْعَلُهُ عِبَادُهُ مِنَ الصَّالِحَاتِ، فَإِنَّمَا نَفْعُهَا لِأَنْفُسِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَفَضَّلَ بِذَلِكَ حَقًّا عَلَى صَلَاحِهِمْ فَرَتَّبَ لَهُمُ الثَّوَابَ بِالنَّعِيمِ عَلَى تَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَتَلَطَّفَ لَهُمْ فَسُمِّيَ ذَلِكَ الثَّوَابُ شُكْرًا وَجَعَلَ نَفْسَهُ شَاكِرًا، وَقَدْ أَوْمَأَ إِلَى هَذَا الْمَقْصِدِ إِتْبَاعُ صِفَةِ شَكُورٌ بِصِفَةِ حَلِيمٌ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ ذَلِك من حمله بِعِبَادِهِ دُونَ حَقٍّ لَهُمْ عَلَيْهِ سُبْحَانَه، وَأَمَّا وَصْفُ بِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَتَتْمِيمٌ لِلتَّذْكِيرِ بِعَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ مُنَاسَبَتِهَا للترغيب والترهيب اللَّذين اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِمَا الْآيَاتُ السَّابِقَةُ كُلُّهَا لِأَنَّ الْعَالِمَ بِالْأَفْعَالِ ظَاهِرِهَا وَخَفِيِّهَا لَا يُفِيتُ شَيْئًا مِنَ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا بِمَا رَتَّبَ لَهَا، وَلِأَنَّ الْعَزِيزَ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَالْحَكِيمُ: الْمَوْصُوفُ بِالْحِكْمَةِ لَا يَدَعُ مُعَامَلَةَ النَّاسِ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ مِنْ وَضْعِ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا وَنَوْطِ الْأُمُورِ بِمَا يُنَاسِبُ حَقَائِقَهَا، وَالْحَكِيمُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى: الْمُحْكِمُ، أَيِ الْمُتْقِنُ فِي صُنْعِهِ وَمُعَامَلَتِهِ وَهُمَا مَعًا مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى فَهُوَ وَصْفٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَيَيْنِ)).(٧٥)وأشار (الزمخشري) إلى المعنى الذي ذكره (ابن عاشور) فقال: (({شَكُورٌ} مُجازٍ، أي: يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب، وكذلك {حَلِيمٌ} يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء، فلا يعاجلكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم))(٧٦)وأشار (الرازي) إلى قريب من هذا المعنى، مع لفتةٍ في الآية، فقال: ((اعلم أن قوله إن تُقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً أي إن تنفقوا في طاعة الله متقاربين إليه يجزكم بالضعف لما أنه شكور يحب المتقربين إلى حضرته حليم لا يعجل بالعقوبة .... شَكُورٍ مجاز أي يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب وكذلك حليم يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء فلا يعاجلكم بالعذاب مع كثرة ذنوبكم))(٧٧)يتضح من النقل السابق أن (الرازي) أشار إلى معنى قريب من المعنى الذي ذكره (ابن عاشور) في معنى (شكور وحليم) ومناسبتهما للسياق.ثم لفت إلى إشارة في الآية وهي أن صفة (العزيز) تقتضي صفة (القوي) في هذا السياق، وهذا من باب تناسب الصفة مع ما سبقها من صفات في هاتين الآيتين فقال: ((ثم لقائل أن يقول هذه الأفعال مفتقرة إلى العلم والقدرة والله تعالى ذكر العلم دون القدرة فقال عَالِمُ الْغَيْبِ فنقول قوله الْعَزِيزُ يدل على القدرة من عز إذا غلب و الْحَكِيمُ على الحكمة وقيل العزيز الذي لا يعجزه شيء والحكيم الذي لا يلحقه الخطأ في التدبير والله تعالى كذلك فيكون عالماً قادراً حكيماً جل ثناؤه وعظم كبرياؤه))(٧٨)

الخاتمة

تبيَّن من خلال البحث النتائجُ الآتيةُ:

١. شكّل التناسب السياقي الأصل الأبرز في نظرية النظم الإعجازي في القرآن الكريم.

٢. انضوى اهتمام المفسرين بالصفات الإلهية الختامية ضمن اهتمامهم ببيان الإعجاز اللفظي والحالي لفواصل الآيات.

٣. من المفسّرين الذين لهم عناية أيضاً بهذا النوع من التناسب إضافة إلى ابن عاشور: الزمخشريُّ، وابن عطية، والرازيُّ، والبيضاويُّ، وأبو السُّعود.

٤. غالباً ما تأتي الصفات التي يبيّن ابن عاشور مناسبتَها ضمن جملة موقعها موقعُ الاستئناف التعليلي أو التذييل، وأكثر من ينبّهُ على ذلك ابنُ عطية وأبو السُّعود.

٥. يذكر ابنُ عاشور المناسبة ويفصِّل فيها أحياناً، وأحياناً يذكرها بإجمال دون تفصيل، وقد يجمل في موضع، ويفصِّل في موضع آخر نظير له، فيكون التفصيل مبيّناً للإجمال.

٦. ذكر ابن عاشور بعض مناسبات الصفات سبق إلى الإشارة إليها بعض المفسرين ممن اعتنى بذكر المناسبات للصفات الختامية، فجاء كلامه بياناً وإيضاحاً لكلامهم.

٧. في بعض المواضع يذكر ابن عاشور المناسبة بشكل مقتضب، وربما سبب ذلك أن غيره من المفسرين أوضح هذه المناسبة بشكلٍ مفصّل.

٨. قد تكون مناسبة الصفة للآية أو لجملة منها، وقد تكون لمجموعة آيات ضمن السياق العام للآية.

٩. تتوارد أقوال المفسرين أحياناً على مناسبة واحدة، وتختلف أحياناً فتعطي ثراءً في أوجه المناسبة، وهذا وجهٌ من وجوه بلاغة هذا الكتاب المعجِز.

١٠. عند ورود صفتين في خاتمة الآية يعتني ابنُ عاشور في كثير من المواضع ببيان مناسبة الصفتين للآية، وبيان مناسبة الصفة الثانية للأولى.

المراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، محمد بن محمد بن مصطفى أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د/ط.ت.
٢. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
٣. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨، ١٤٢٥هـ.
٤. الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير، محمد بن سعد القرني، رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى في المملكة العربية السعودية، سنة ١٤٢٧هـ.
٥. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
٦. الإيجاز في دراية الإعجاز، محمد بن عمر فخرالدين الرازي، دار صادر ببيروت، ط١، ٢٠٠٤.
٧. الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، د/ط.ت.
٨. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الجيل ببيروت، د/ط، ١٩٨٨م.
٩. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، المكتبة العصرية بصيدا، د/ط، ٢٠٠٥م.
١٠. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مطبعة حكومة الكويت، ط١، ١٩٩٨م.
١١. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، د/ط، ١٩٨٤م.
١٢. التناسب السياقي ومستوياته في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، فضيلة عظيمي، رسالة مقدّمة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة والأدب العربي في جامعة محمد لمين دباغين، سنة ٢٠١٨م.
١٣. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، مكتبة الإيمان بالقاهرة، د/ط.ت.
١٤. شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور (حياته وآثاره)، بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
١٥. الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة العبيكان بالرياض، ط١، ١٩٩٨م.
١٦. لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر ببيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
١٧. مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير، شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي، رسالة علمية مقدّمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد في جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية، عام ١٤٢٥هـ.
١٨. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن أبي الكرم ابن الأثير، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٩٨٨م.
١٩. المحرر الوجيز، عبد الحق بن غالب ابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
٢٠. المختصر شرح تلخيص المفتاح، مسعود بن عمر التفتازاني، دار التقوى، دمشق، ط١، ٢٠٢١م.
٢١. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن زكريا بن فارس، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
٢٢. مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.
٢٣. مفتاح العلوم، يوسف بن محمد السكّاكي، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
٢٤. المفصل في علوم البلاغة العربية، عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب، د/ط، ٢٠٠٠م.
٢٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، د/ط.ت

الهوامش

---

(١) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، د/ط، ١٩٨٤م، ١/١٠٤.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨، ١٤٢٥هـ، ص١٥٥.

(٣) ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور (حياته وآثاره)، بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٧.

(٤) ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور (حياته وآثاره)، بلقاسم الغالي، ص٣٩.

(٥) ينظر: مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير، شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي، ، ص١٣.

(٦) ينظر: مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير، شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي، ص١٤.

(٧) ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور (حياته وآثاره)، بلقاسم الغالي، ص٣٧

(٨) ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور (حياته وآثاره)، بلقاسم الغالي، ص٦٣، ومباحث التشبيه والتمثيل ، ص٢٤-٢٥.

(٩) ينظر: الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير، ص٣٠

(١٠) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٧/١.

(١١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن زكريا بن فارس، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ٤٢٣/٥، مادة (نسب).

(١٢) لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر ببيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ٧٥٥/١.

(١٣) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مطبعة حكومة الكويت، ط١، ١٩٩٨م، ٩٦٩/١، مادة (نسب).

(١٤) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ٦٩٥/٢.

(١٥) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الجيل ببيروت، د/ط، ١٩٨٨م، ٣٦/١.

(١٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، د/ط.ت، ٥/١-٦.

(١٧) ينظر: التناسب السياقي ومستوياته في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، فضيلة عظيمي، ص١٤.

(١٨) مفتاح العلوم، يوسف بن محمد السكّاكي، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص٨٤.

(١٩) المصدر السابق، ص١٦٨.

(٢٠) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، المكتبة العصرية بصيدا، د/ط، ٢٠٠٥م، ٩١/١.

(٢١) الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني، مكتبة الهلال ببيروت، ط٣، ٢٠٠٠م، ص٣٢-٣٣.

(٢٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، مكتبة الإيمان بالقاهرة، د/ط.ت، ص٧٩.

(٢٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن أبي الكرم ابن الأثير، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٩٨٨م، ٢٦٩/١.

(٢٤) الإيجاز في دراية الإعجاز، محمد بن عمر فخرالدين الرازي، دار صادر ببيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣٣.

(٢٥) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٧٥.

(٢٦) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ٣٤٧/١.

(٢٧) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٣٤٢/١٧.

(٢٨) ويسمَّى كذلك الاستئناف البياني؛ وهو الذي يكون جواباً لسؤال اقتضته الجملة قبله، وهو من مواضع الفصل؛ أي: ترك العطف، ينظر: المختصر شرح تلخيص المفتاح، مسعود بن عمر التفتازاني، دار التقوى، دمشق، ط١، ٢٠٢١م، ص٤٠٤.

(٢٩) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، د/ط.ت، ص٣٥٥-٣٥٧.

(٣٠) ينظر: المفصل في علوم البلاغة العربية، عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب، د/ط، ٢٠٠٠م، ص٥٦٥.

(٣١) المحرر الوجيز، عبد الحق بن غالب ابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ١٣٤/٤.

(٣٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ٧٩/٤-٨٠.

(٣٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، محمد بن محمد بن مصطفى أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، ١٢١/٦.

(٣٤) ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ١٨٣/١٨.

(٣٥) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ١٨٣/١٨.

(٣٦) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ١٨/٥.

(٣٧) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٨٣/١٠.

(٣٨) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ١٣٧/١٠.

(٣٩) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١٧١/٤.

(٤٠) مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ، ٣٤٤/٢٣.

(٤١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٢١٨/١٨.

(٤٢) وهذا من مراعاة النظير التي تقدم الحديث عنها.

(٤٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١٨٠/٤.

(٤٤) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ١٨٧/٢٣.

(٤٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، ٣٧٨/٤.

(٤٦) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٢٣٨/٢٠.

(٤٧) التذييل: (تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد). المختصر شرح تلخيص المفتاح، التفتازاني، ص٤٦٧.

(٤٨) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣١٤/٤، وقوله: (يقتضي) هكذا في النسخة التي بين يدي، ولعله: (تقتضيان).

(٤٩) الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة العبيكان بالرياض، ٢٠٣/٥.

(٥٠) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، ٤٦٩/٤.

(٥١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٨٤/٢١.

(٥٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣٣٥/٤.

(٥٣) الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، ٢٤٨/٥.

(٥٤) ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ١٦٤/٢١.

(٥٥) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣٥٠/٤.

(٥٦) ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٥٧) أي: عليم بزمن تحقق وعده الذي هو البعث. ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩٤/٢١.

(٥٨) المرجع السابق، ١٩٩/٢١.

(٥٩) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣٥٦/٤.

(٦٠) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ١٣٤/٢٥.

(٦١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٧٦/٢٢ – ٧٧.

(٦٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣٩٣/٤.

(٦٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٣٣٩/٢٢.

(٦٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤٤٤/٤.

(٦٥) ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٦٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٥٧/٧.

(٦٧) ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٦٨) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ١٥١/٢٦.

(٦٩) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١٢٧/٥.

(٧٠) مفاتيح الغيب، الرازي، ٦٨/٢٨.

(٧١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٥٤/٢٦.

(٧٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١٢٨/٥.

(٧٣) الرازي، مفاتيح الغيب، ٧١/٢٨.

(٧٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ١٠٦/٨.

(٧٥) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٢٩١/٢٨.

(٧٦) الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، ٧٩/٧.

(٧٧) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ٢٦/٣٠.

(٧٨) المرجع السابق، الصفحة نفسها.